

الإيديولوجيا والهوية في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية بين جدلية الأنا والآخر رواية أشباح الجحيم لياسمينا خضرا أمودجا.

Ideology and Identity in Algerian novel written in French: The argumentation of ego and other in Yasmina Khadra's Novel 'Ghosts of Hell' as an Example.

زياني إبراهيم الخليل: جامعة يحي فارس بالمدينة - الجزائر - ziani.ibrahimelkhalil@univ-medea.dz

د. محمد رغميت: جامعة يحي فارس بالمدينة - الجزائر - reghmit.mohamed@univ-medea.dz

مخبر: الدراسات المصطلحية والعجمية - كلية الآداب - جامعة المدينة

تاريخ النشر 30 جوان 2024

تاريخ القبول: 10/ 3/ 2024

تاريخ الاستلام: 11/ 10/ 2023

الملخص:

حازت الإيديولوجيا والهوية في الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية على مكانة مهمة، فبتتبع مسار هذين العنصرين تاريخيا وحضورهما في النص الروائي نجد أنهما ارتبطا في بادئ الثورة بالجانب التحرري والثوري وإسماع العالم بالظلم الواقع على الجزائريين، أما اليوم فتتخطى الهوية والإيديولوجيا في المتن الروائي المكتوب بالفرنسية القطر المغاربي؛ لتحط الرحال في كل بقعة واقعة تحت ظلام الاستعمار، وعليه تهدف هذه الدراسة المنمذجة بمسردية الكاتب الجزائري ياسمينا خضرا "أشباح الجحيم" إلى رصد العلاقة بين الأنا والآخر، وما يعتري هذه العلاقة من ائتلاف واختلاف وانتقالات بين الصراع والعنصرية والحرب من جهة، وبين محاولة التعايش من جهة أخرى، بالإضافة إلى رصد الحمولة الإيديولوجية والهوياتية في الرواية، كما تحاول الدراسة الإجابة عن تساؤلات أبرزها كيف ينظر كل طرف للآخر؟ ومدى محافظة الأنا على هويته وتعلقه بوطنه؟ وكيف ترسم الرواية صورة الآخر المختلف عرقيا ودينيا؟ معتمدين في ذلك على المنهج الوصفي التحليلي.

الكلمات المفتاح: الهوية، الإيديولوجيا، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، الأنا والآخر، ياسمينا خضرا

تصنيف JEL : XN1، XN2.

Abstract:

The ideology and identity in Algerian novels written in French have held a significant place. These two elements were linked to the liberation and revolutionary aspect at the beginning of the revolution, making the world aware of the injustices suffered by the Algerians. However, today, identity and ideology in French-language Moroccan literature go beyond that to settle in every corner under the shadow of colonialism. Therefore, aims to observe the relationship between the self and the other, as well as the complexities and variations in this relationship between conflict, racism, and war on one hand, and attempts at coexistence on the other. Additionally, the study seeks to examine the ideological and identity aspects in the novel, addressing prominent questions such as how each party perceives the other, the extent to which the self retains its identity and attachment to its homeland, and how the novel portrays the other who is different racially and religiously. This study relies on a descriptive-analytical approach.

Keywords: identity, ideology, the Algerian novel written in French, the ego and the other, Yasmina khadra.

Jel Classification Codes : XN1, XN2.

* المؤلف المرسل

مقدمة:

إن الملاحظ والمتبع لمسار الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، يدرك أن ممارسات المستعمر كانت سببا في عرقلة مسار الإبداع الفكري والأدبي من منع تداول اللغة العربية والإجبار على الفرنسية، ولكنها في نفس الوقت كانت محفزا للطبقة الجزائرية المثقفة لإستغلال هذه الغنيمة (اللغة الفرنسية) واستعمالها كسلاح للنضال، فكانت إيديولوجية هذه الروايات تصب معظمها في ترسيخ الهوية الوطنية والثقافة المحلية وكذا الهوية الدينية، ولكن بعد الاستقلال تغيرت الرؤى والإيديولوجيات فمن انتقال بين الرواية الاشتراكية كما في ستينات وسبعينات القرن الماضي، إلى رواية التحريب ثم رواية الإلتزام، لتتجه رواية اللسان الفرنسي المعاصرة وبتأثير من (الحدائنة والعولمة وأفكار عالمية الأدب) إلى تخطي القطر الجزائري والمغربي لتحط الرحال في أي قطر في العالم يحمل قضية استعمار فتناقش أوضاعه السياسية والإجتماعية، وكان من بين هذه الروايات مسردية الكاتب الجزائري ياسمينا خضرا المعنونة ب"أشباح الجحيم" والتي نوقشت فيها قضية الاحتلال الأمريكي للعراق وتبعاتها على الوضع الداخلي وبالأخص مدينة بغداد العاصمة، ونحن باختيارنا لهذه الرواية كانت أسبابنا (ذاتية وأخرى موضوعية) أما الأسباب الذاتية فللاطلاع على هذه الحقبة المظلمة من تاريخ العراق ورؤية كيف صور ياسمينا خضرا هذا الوضع، وأما الأسباب الموضوعية فلإبراز تمسك الكتاب الجزائريين بقضايا الظلم خاصة إذا تعلق الأمر بقطر عربي، وكذا لرصد معالم الهوية والحمولة الإيديولوجية في هذه الرواية، ولأن موضوع الرواية يمثل طرحا هوياتي إيديولوجي يحمل مأساة شعب فقد ارتأينا أن أفضل منهج نستعمله هو المنهج الوصفي التحليلي بالإضافة لاستعانتنا ببعض أدوات النقد الثقافي لتفكيك شفرات النص واستخراج كل ما من شأنه أن يكون له علاقة بالهوية والإيديولوجيا وثنائية الأنا والآخر، محاولين الإجابة على عدة تساؤلات أبرزها: كيف تجلت الهوية في رواية أشباح الجحيم؟ وما مدى نجاحها في تصوير الصراع الإيديولوجي بين الأنا (العراقي) والآخر (الأمريكي)؟ ومدى ارتباط الأنا بأرض المنشأ والوطن؟

2. مفاهيم أساسية:

1.2 الهوية:

اختلف الباحثون والدارسون في شتى المجالات (الأدبية والفلسفية والإجتماعية) في إعطاء تعريف جامع مانع للهوية خاصة فيما يتعلق بضبط المصطلح، هذا كون الهوية مرتبطة بالذات الإنسانية سواء في صيغتها الفردية أو الجماعية، ومع التطور الحضاري الحاصل اتسعت رقعة الخلاف وأصبحت الهوية هاجسا مما أشعل لهيب الانتماء والأصل، فأصبحت مناقشة فكرة الهوية أمرا ضروريا لمسيرة الحضارة.

2.2 اصطلاحا:

الهوية اصطلاحا "هي عملية تمييز الفرد لنفسه وتحديد حالته الشخصية" وتساعد هذه العملية بما يميزها من سمات (اسم، جنسية، سن، حالة، مهنة...) الفرد في تسهيل معاملاته المختلفة مع الجهات التي تطالب بإثبات شخصيته. ومبدأ الهوية المقصود به أن الموجود هو ذاته أو هو ما هو فلا نخلط بين الأمور أو بين الشيء وما عداه وألا نضيف للشيء ما ليس له. ومفهوم الهوية كما يقول هنتغتون "لا يستغنى عنه، وفي الوقت نفسه غير واضح، إنه متعدد الأوجه، تعريفه صعب، ويراوح العديد من طرق القياس العادية" (هنتغتون، 2005)

ونواجه عند تعريفنا للهوية مشاكل في ضبط المصطلح وذلك راجع إلى عدة أسباب "فعلى الرغم من البساطة الظاهرية التي يتبدى فيها هذا المفهوم فإنه وعلى خلاف ذلك" يتضمن درجة عالية من الصعوبة والتعقيد والمشكلة، وذلك لأنه بالغ التنوع في دلالاته واصطلاحاته" (ميكشيللي، 1993، صفحة 7).

كما يمكن للمرء أن ينظر للهوية "على أنها على أنها مجموع سماته المميزة والدائمة التي تميزه بوصفه مخلوقا لا تخطئه العين، والهوية هي ما يمكن للإنسان أن يصف به الآخرين... إلا أن الهوية هي أيضا ما أصف فيه نفسي عندما أتأمل ذاتي بصورة مكثفة وأشكل صورة ذاتي" (بيتر، 2010، صفحة 93) فالهوية هي الحقيقة المطلقة أو للشخص المشتملة على صفاته الجوهرية التي تميزه عن غيره، وتسمى أيضا وحدة الذات أي خلوها من التناقضات والتشتت.

3 صورة الجزائريين في الأدب الفرنسي:

مرت الجزائر بمراحل هامة في تاريخها ولا شك أن مرحلة الخمسينيات من القرن التاسع عشر شكلت بداية لمرحلية مفصلية هامة في تاريخها الحديث كيف لا وهي المرحلة التي شهدت بداية الخلاص من كابوس جثم على صدر الجزائريين لأزيد من 132 سنة مورس على هذا الشعب شتى أنواع الظلم والتهميش والتجهيل فقد تم طمس هويته من لغة ودين وهوية وقد استعمل الاستعمار الفرنسي الغاشم عدة وسائل في تحقيق هدفه فكان الأدب من بين هذه الوسائل فقد حاول الكتاب والأدباء الفرنسيون ترسيخ فكرة (الجزائر فرنسية) تأكيداً لشعار ديغول القائل: "من دانكيرك إلى تلمسان.. بلد واحد هي فرنسا" (بزيان، 2005، صفحة 07) فكان ذلك من خلال كتاباتهم الروائية عبر إعلاء صورة الأنا الفرنسي وطمس وتشويه والخط من قدر الآخر الجزائري لأنهم أدركوا أن القوة لا تكفي لتحقيق السيطرة الكلية بل لا بد من الاستعانة ببعض الحقول المعرفية كانت الرواية أبرز حقل تجلت فيه إستهامات المستعمر وحقده على الجزائريين برسمه صورة فولكلورية ومقيدة بوصفهم بالبدائية والتوحش وتصويرهم على أنهم شعب منعزل عن الحضارة وأنه لولا يد فرنسا التي امتدت له ما عرف نور التقدم وعليه تسلت هذه الصورة النمطية لدى الرأي العام الفرنسي مما شجعهم على بدأ حملات الاستيطان في أرض الجزائر باعتبارها أرض الميعاد وبوابة الشرق.

حيث كانت كتابات غي دي موباسان مشجعة للأوروبيين والفرنسين على الجيء للجزائر من خلال بعض النماذج للمستوطنين في قصته "علومه" "كان مقامراً، وزير نساء، نزل بالجزائر بعد أن ملّ حياة المغامرة والمقامرة، ليستثمر ما بقي له من مال في الزراعة، وقد لقي من السلطات العسكرية والمدنية، كلّ الحماية والتشجيع والتسهيلات، وأصبح بفضل ذلك صاحب مستثمرة فلاحية واسعة" (منور، الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر، 2007، صفحة 14/13). وكذلك الحال بالنسبة لروايات الفرنسي "ألفونس دودي" في مذكرته "الجراد"، يشيد بإنجاز المستوطن الذي استضافه في مزرعته، "ووقف أمام الضيعة، يتأمل أشجارها، وثمارها، وأزهارها، وماءها، وإسطبلاتها، وحظائرها، وخيراتها الكثيرة، ليقول بعد ذلك: "كنت أفكر في نفسي، إنه منذ عشرين عاماً. لم يجد هذا الرجل الشجاع وزوجته في هذا السهل الصّغير من الساحل، لم يجد سوى "براقة" حارس، وأرض مهملة تنتشر فيها أشجار نخل قميئة، وعوسج؛ فكان عليهما أن ينشأ كل شيء، وبيننا كل شيء" (منور، 2007، صفحة 11)، هكذا كان الأدب الفرنسي أدبا استعماريًا بكل ما تحمله الكلمة من المعنى تم فيه "تبرير الاحتلال والتوسع الاستعماري، وإضفاء الشرعية عليهما؛ والخط من قدر الآخر الجزائري. "وهكذا، فإنّ العربي، والإسلام، والمخرب، والمتدين، كل هؤلاء تمت الإساءة إليهم، والتقليل من قيمتهم، واستصغارهم، وتزييف صورهم، والتعظيم عليها، وحتى توسيخها" (بوشامة، 2010، صفحة 28) وفق الشعار المخزي الذي رفعته منظمة الأقدام السوداء: الجزائر جميلة ولكن بدون الجزائريين.

الحقيقة التي لا يجب أن نغفل عنها أن المستعمر الفرنسي قد نجح في رسم هذه الصورة السوداوية عن الجزائري في وسط مجتمعه والغرب، لكنه لم يستطع إلغاء العقل الجزائري ولا حتى إدماجه لأن الأخير سعى للمقاومة بكل وسيلة أتاحت أمامه حتى قامت ثورة الفاتح نوفمبر المجيدة التي كللت سنوات من الكفاح والمقاومة وانتهت باندحار الاستعمار، ليخرج الشعب الجزائري منتصرا محافظا على هويته من التلاشي والذوبان في الآخر.

1.3 القائلين بقومية هذا الأدب:

ذهب القائلون بهذا الرأي لاعتبار هذا الأدب أدبا جزائريا قوميا لأنه يعبر عن صوت مجتمعه، ومن هؤلاء نجد مراد بوربون حيث يقول "الكتاب الجزائريون لم يقدموا أدبا له طابع المستعمر، رغم استخدامهم لغة المستعمر، ولكنهم فرضوا أدبا حرا ومتحررا، أدبا ذاتيا لم يكن تابعا للأدب الفرنسي، كما أنه لم يكن الامتداد الأجنبي له" (أديب، 1982، صفحة 50).

فالأدب الجزائري إذا نظرنا له من زاوية المضمون فإننا نجد مرتبط ارتباطا كليا بتاريخ الجزائر وبالذات والمقاومة الوطنية وبكفاح الشعب الجزائري ضد المستعمر، فهو أدب تشكل لمقاومة العدو الأجنبي، والدفاع عن الثوابت الوطنية وعن المقومات الشخصية للأمة الجزائرية، حفاظا على الهوية من الضياع والانسلاخ فليس من العدل حسب هؤلاء أن يعتبر الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية أدبا فرنسيا، وهذا ما عبر عنه محمد ديب "أعتقد أنه إذا كان هناك أدب لا يمكن أن نلحق به أو نضم إليه فهو الأدب الفرنسي" (أديب، 1982، صفحة 50)، ويضيف متحدثا عن ثلاثيته "بل قولوا أدبا قوميا يظهر الآن في المغرب عامة وفي الجزائر خاصة، غير أن هذا الأمر له دلالة بليغة هو أن هذا الأدب يكتب باللغة الفرنسية في بلد ذا تراث إسلامي لا تزال تحاول ولو في كثير من العناء أن تقدم إنتاجا أدبيا باللغة العربية" (بن صالح، 2011، صفحة 220).

وجدير بالإشارة إلى أن الأوضاع السياسية التي عاشتها التي الجزائر هي من فرضت مثل هذا الأدب واضطرت الطبقة المثقفة والروائيين إلى اللجوء للفرنسية "فلا يمكن وضعهم في قفص الاهتمام أو أن يعتبروا مذنبين لأنهم أسهموا إلى حد كبير في إثارة قضية بلادهم، وفي تنبيه الراي العام الفرنسي والرأي العالمي حول هذه القضية، فلو أنهم بقوا ساكتين لما غفرت خطاياهم" (بن صالح، 2011، صفحة 220).

أما مولود معمري فقد ذهب لتفسير هذا التعدد اللغوي حيث قال "وجود ثقافتين مختلفتين -الثقافة الفرنسية والثقافة الجزائرية - كان وضعها في صالح الجزائريين الكتاب، لأن الكاتب وهو في هذه الحالة كان يعزف على وترين

أما عن سبب التجائه الكتابة باللغة الفرنسية فيعمل ذلك بقوله "كنت مضطرا للتعبير عن أفكارى بأسلوب غير مباشر واللجوء إلى الغموض أحيانا -وهذا أخطر وأعظم - إلى اختيار مواقف ما كنت اخترتها في إطار سياسي مختلف" (أديب، 1982، صفحة 55)

كما أن مولود معمري كان يرى بأن الكتابة باللغة الفرنسية كان دافعا من دوافع التحرر من الاستعمار "وقد تعامل مولود معمري مع الأدب على أنه متوجه إلى جمهور مختلف عن الجمهور الذي يعبر عنه وموجه إليه، وكان الأدب بمثابة سلاح دعائي لمناهضة الاستعمار، أو منشور كي يعرض على أبناء الوطن الاستعماري ما يرتكبه الأبناء من بشائع في المستعمرات" (قاسم، 1996، صفحة 118)

أما مالك حداد فيعتبر عن الكتابة باللغة الفرنسية ويعتبر نفسه ضحية الاستعمار حيث يقول "لقد أراد الاستعمار ذلك، أن يكون عندي هذا النقص، لا أستطيع أن أعبر بلغتي" ويضيف قائلا أن كتابته باللغة الفرنسية ليست معيارا للحكم على إخراج هذا الأدب من دائرة القومية الجزائرية "نحن نكتب بلغة فرنسية لا بجنسية فرنسية" (داوود، 2005، صفحة 25). ويضيف عبد الكريم الخطيبي قائلا: "أشعر وأنا أكتب بلغة الآخر بأني أشبه بالطفل اليتيم وهو يبحث عن شكل من أشكال التبني، وبدعمه في هذا الرأي المؤرخ عبد الله ركيبي إذ يقول: "وهذه المأساة عبر عنها البعض من الكتاب الجزائريين، واعتبروا أنهم غرباء منفيون في لغة أجنبية، وزاد من إحساسهم بهذه الغربة أنهم يكتبون لجمهور غير مواطنيهم فقراؤهم خارج بلادهم، وهذا بسبب انتشار الأمية في وطنهم، فهم من هذه الناحية يتامى محرومون كما عبر مال حداد، وحتى ما ترجم من كتبهم إلى اللغة الأم لم يجدوا قراء كثيرين ودفع البعض منهم إلى أن ينادي بوقف الكتابة بلغة أجنبية" (ركيبي، 2009، صفحة 210) ويسانداهم أيضا كاتب ياسين حيث يقول: "من

يقاقل لا يسأل لا يسأل نفسه إن كانت البندقية التي يستعملها فرنسية أو ألمانية أو تشيكية، وإنما بندقية وهي سلاحه وهي لا تخدم إلا معركته... إن الفرنسية ليست سوى أداة لتوصيل أفكارنا إلى المثقفين في العالم لنجذب به المفكرين الأحرار لنصرة قضية جزائرينا العربية" (شرف، 1999، صفحة 157)، أصحاب هذا الرأي يطالبون أن ينظر إلى أدهم على أساس الروح الجزائرية التي تتجلى في مضامينه لا لغته، فهي حسبهم لا تعدو وسيلة يلتصمون بها بتحقيق أهدافهم.

2.3 القائلين بأنه أدب فرنسي:

يرى أصحاب هذا الرأي أن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية كان في بدايته معبرا ويحمل هم الشعب الجزائري ومشاكله وهومومه ولكن مع مرور الوقت وتحديدًا بعد الاستقلال حتى بات هذا الأدب منقطعًا عن المجتمع وثقافته غير أن بعض اعتبره حاملا لثقافة غربية وإيديولوجية بعيدة كل البعد عن الإيديولوجية العربية، واعتبروا اللغة سببا كافيا لإثبات الهوية والانتماء الفرنسي لهذا الأدب، كما يتبنى أصحاب هذا الرأي فكرة وقاعدة الأدب المقارن التي تنسب الأدب إلى اللغة التي كتب بها بغض النظر عن جنسية صاحبه، وأن هذا الأدب لن يصبح أدبا جزائريا إلا بعد أن تصبح اللغة الفرنسية لغة وطنية في الجزائر، كما يذهب هؤلاء الكتاب إلى أن هذا الأدب كان إدماجيا داعيا للتعايش مع المستعمر والاندماج معه، مما جعل هذا الأدب غريبا عن الجزائريين حيث يقول في هذا "عبد المالك مرتاض" "إن هذا الأدب غريب في نفسه ومنفى عن موطنه الذي كتب فيه، ولم يستطع أن يلعب دورا كبيرا في فحضة الأدب المعاصر بالجزائر، فضلا أن يلعب دورا خطيرا في إذكاء نار الثورة التي قيضت للشعب الجزائري أن يكسر قيود الاستعمار الثقيلة" (مرتاض، 1983، صفحة 06)، كما كان الكتاب الفرنكوفونيين في مرحلة ما قبل الثورة مقتنعين تمام الاقتناع "أن فرنسا نجحت في مهمتها الحضارية، إذ كان لا بد من إظهار شيء ما أمام الرأي العام الفرنسي والعالمي يبرر استمرار الاحتلال للبلاد"، هكذا كانت صورة الرواية الفرنكوفونية داعية لتمجيد الجلاد منعزلة عن إيصال رسالة وصوت شعبها المقهور، فإنهم كانوا يشيدون صراحة وبلا تحفظ بفضل الاستعمار على البلد ويظهرون إعجابهم بالثقافة والحضارة الفرنسية" (إدريس، 2011، صفحة 15)

3.3 القائلين بأنه أدب بلا هوية:

أصحاب هذا الرأي يرون أن الجزائريين الذين يكتبون باللغة الفرنسية لم يتمكنوا من إرضاء جمهورهم الجزائري والفرنسي، مما جعل هؤلاء الكتاب يشعرون أنهم يقفون على الهامش في الضفة الأخرى بين المجتمع الفرنسي وكذا الجزائري، لذلك فهم يعتبرونه أدبا بلا هوية لأنه لم يأخذ من الفرنسية إلا لغتها، فكيف يستطيع الكاتب الجزائري أن ينقل أفكاره للمتلقى الفرنسي المختلف عنه ثقافيا، وإن تمسح بالفرنسيين وادعى اندماجه في وسطهم، كما أنه لا يستطيع التواصل مع أهل بلده بلغة غير لغتهم خاصة إذا فهمنا أن الأغلبية الساحقة من الجزائريين وقتها يعانون من الأمية.

4 الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وأيديولوجيتها:

لطالما كانت النصوص الروائية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية مسرحا للحدث السياسي والتاريخي والبعد الإيديولوجي، فالإيديولوجيا تعتبر أحد المكونات الأساسية للخطاب الروائي، وقد ارتبطت الرواية السياسية الجزائرية (خاصة المكتوبة باللغة الفرنسية) بالواقع الإيديولوجي التاريخي وجاء النص الروائي في المرحلة الثانية، مرحلة ما بعد الاستقلال ليصف الثورة ويؤولها إيديولوجيا وفق النظرة السياسية التي تحكم منطق السرد، فقد عالجت الرواية موضوع الثورة التحريرية وعملت على إسماع صوتها مقابل تصوير جرائم الاستعمار الفرنسي وما لقيه الشعب الجزائري وتعرض له من مجازر.

-موضوع الثورة كان مادة دسمة للروائيين الجزائريين سواء من كان منهم يكتب بالعربية أو من اضطرت الظروف والعوامل للكتابة بلغة المستعمر (الفرنسية)، ولم يكن التطرق للكتابة باللغة غير العربية موضوع نقاش بقدر ما كانت المضامين والمواضيع المطروحة، والتي ما برحت تصور الواقع الاجتماعي والسياسي العصيب "فالروائي لا يعرف لغة واحدة كما أن أسلوبه ليس هو لغة

الرواية ذاتها، لأن الرواية في الواقع متعددة الأساليب فكل شخصية وكل هيئة، تمثل في الرواية إلا ولها صوغها الخاص وموقفها الخاص ولغتها الخاصة وأخيرا أيديولوجيتها الخاصة" (لحميداني، 1990، صفحة 15)، فالروائيون الجزائريون بالإضافة إلى خلقهم الشخصيات الروائية فإنهم ينسبون الكلام لها ويعطونها البعد الإيديولوجي المناسب، سواء بطريقة خفية غير ظاهرة أو بطريقة مباشرة، وهكذا يتحول المتن الروائي من عملية إمتاع فني جمالي إلى نص يستوعب إيديولوجية الأديب، فيكون قالب أفكاره ومستودعها، ولأنه خلال فترة الاستعمار كان الكتاب يتبنون إيديولوجية ثورية تحررية، كان لزاما عليهم أن يتبنوا إيديولوجية تناسب مرحلة ما بعد الاستقلال والتي تمثلت في الإيديولوجية الاشتراكية أو ما تسمى برواية "السلطة" كمثال رواية اللالز للطاهر وطار إذ كان مرتبطا في ممارسته الكتابية الروائية "باللحظة الزمنية والمكانية والتاريخية لمحيطه ارتباطا حميميا وقد سمح له انتمائه الإيديولوجي إلى الفكر الاشتراكي بإضفاء طابع الإلتزام على تجربته الروائية" (بوشوشة، 1998، صفحة 11).

إضافة إلى الطابع الاشتراكي الذي ميز الروايات الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، لا بد أن نرصد بعض الجوانب التي تبرز بعض الجوانب التي تبرز مدى تمسك هؤلاء الرواة بهويتهم الدينية التي تعتبر مرجعية لا مناص منها، فمثلا في رواية "نجمة" لكاتب ياسين تظهر الهوية الدينية بشكل بارز في هذا المقطع السردي " كان المؤذن ينادي للصلاة، لاشك أنه أخطأ الساعة إذ أن سي مختار كان دقيقا في احترام مواعيد الصلاة لم ينهض ليتوضأ لصلاة الفجر ولكن المؤذن أطال الآذان والدعاء، ولاح الفجر حقا عند آخر نداء لها" (كاتب ، رواية نجمة، 1987، صفحة 149)

كما تظهر صورة أخرى من صور التمسك بالدين عند مولود فرعون وهو أحد الروائيين الذين عايشوا الاستعمار في روايته الماتعة "الدروب الوعرة" إذ يقول "أمك يا ولدين قد فارتك قريرة العين وستبارك عملك في الدار الآخرة" أو في المشهد الذي يستيقظ فيه عميروش على صوت عجوز تصلي على النبي صلى الله عليه وسلم على سكان القرية وهم متوجهون لأداء صلاة الفجر «وأسمع صوت أمه المرتعش وهي تصلي وتسلم على سيدنا محمد .. وأخيرا ستفتح أبواب وتغلق أخرى وينهض الجيران إنهم الخطي لأداء صلاة الفجر" (فرعون ، الدروب الوعرة، 1990، صفحة 46) ، وكذلك في رواية ابن الفقير لمولود فرعون وصورة الاستسلام والتصديق بقدرة الله التي لا تشابهها قدرة ولا تقف في طريقها أية عقبة، "يا إلهي يا رحيم، إن كان قدر هناك في السماوات العلى تكون قصة منراد فورولو معروفة للجميع فمن ذا الذي يستطيع أن يخالف ناموسك" (فرعون ، ابن الفقير، 2012، صفحة 11) ، وفي نفس الرواية يقول مولود فرعون : "وفي كل عام كان والدي يذبح خروفا، إحياء لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم" (فرعون ، ابن الفقير، 2012، صفحة 79)

لقد سارت معظم الروايات الجزائرية المكتوبة بالفرنسية هذا المسار إبان الثورة فكانت تحمل هم الأوضاع السياسية والإجتماعية المزرية إضافة على أنها كانت ترسخ وتبرز كل صور الهوية الإسلامية، وهذا ما لم يعجب فرنسا فعمدت إلى التصديق على هؤلاء الرواة بل ووصل الأمر إلى حد تصفيتهم بدم بارد كما فعلت مع الروائي مولود فرعون الذي اغتالته منظمة الجيش السري في مقر عمله في 15 مارس 1962.

5 الرواية والإيديولوجيا:

بالعودة إلى تعريفات الإيديولوجية والتي صبت كلها في خانة أنها "علم موضوعه دراسة الأفكار بالمعنى العام لظواهر الوعي، ومزاياها وقوانينها وعلاقتها مع العلامات التي تمثلها" أو "بأنها خيالات أو بعبارة أبسط الصورة التي يرسمها الناس عن أنفسهم. بمعنى أن النظام الفكري الذي يحمله الإنسان، نابغ بالدرجة الأولى عن تلك التصورات المنبثقة من الجانب النفسي له في خواجه الذاتية"، ولأن الكثير من الأدباء والنقاد عملوا على تفنيد علاقة الأدب بالإيديولوجيا، وأن هذين العنصرين لا يلتقيان فليس للإيديولوجيا تأثير واضح على الأدب فيقول أحدهم: "الموضوع الأدبي إبداع مطلق لا يتحدد إلا بخالقه، لذا يجب بحث الأدب على أساس الموهبة والعبقري" وقد

توالت الحجج الداعمة لهذا القول كقول: "العمل الأدبي ليس مركبة لنقل الأفكار ولا انعكاسا للواقع الاجتماعي". فهو حسبهم لا يحتمل أي ذرات من أفكارها وأيديولوجياتها فمبتدأها من الذات ورجعوها إليه تثبت لا إيديولوجيته" على أن هذه الأفكار والنظريات لازال غير مقطوع بصحتها، فما زالت للآن تطرح أسئلة على شاكلة: هل يمكن اعتبار ما يبدعه أي أديب انعكاسا لأيديولوجيته؟ أم هو مستقل عنها؟

ينسب للوسيان غولدمان إلى ربط الإيديولوجيا بالأدب والواقع الاجتماعي فيقول: "فالإيديولوجيا في الأدب تبحث عن علاقة مضمون العمل الأدبي بشرط انتاجه الاجتماعي، أو بالدلالات التي يحملها ومدى إحالتها على وعي صاحبها، من خلال وعي الجماعة التي ينتمي إليها، فهي تظهر في المواقف أو بشكل التعبير فقط،" بل تتجسد في المواضيع التي يختارون الكتابة فيها، ليتمكنوا من إرسال الرسالة التي يريدونها لتمثل الوعي الممكن الذي يحرك فكر الجماعة ويرسم مستقبلها، وتتمثل في رؤية الأديب للعالم التي يضمها كل نص أدبي"، يتبنى لوسيان غولدمان هنا فكرة الارتباط الوثيق للأدب بالإيديولوجيا وبل يذهب إلى أبعد من ذلك باقتراح هذين العنصرين بالسياق الاجتماعي الذي يكتبون فيه، ومدى التزام فكرهم هذا بوعي الجماعة المنتمي إليها صاحب النص، كما يشير إلى أن كل نص أدبي يحمل رؤية مضمرة تتجلى من خلال كيفية رؤية الكاتب للواقع الاجتماعي والعالم حسب قوله.

أما عند نقادنا العرب فقد ذهب كمال أبو ديب إلى ربط الإيديولوجيا بجميع مناحي الحياة وجميع الأنظمة السياسية كانت أو فكرة واقتصادية واجتماعية عندما قال: "الإيديولوجيا هي البنية النظرية المتشكلة لدى مجموعة بشرية في المجتمع، نتيجة تراكم مقالات ماضوية الطابع تتعلق بالتنظيم الاجتماعي في أبعاده السياسية والاقتصادية التي نشأت في زمن ومكان آخرين، والتي تسعى هذه المجموعة إلى فرضها على الواقع الراهن، وصياغة الواقع الراهن تبعاً لها وفي إطارها".

وتبعاً لهذا فإنه يمكننا القول بأن الأدب يعد شكلاً إيديولوجياً فهو شديد الاتصال بها، وتأتي الرواية باعتبارها أكثر الأجناس الأدبية شيوعاً في وقتنا الحاضر لتحتشد فيها الإيديولوجيا بصورة واضحة، "فتأتي الرواية محتلة مكاناً مزدوجاً، فمن حيث هي مطابقة للإيديولوجيا فهي تعيد إنتاجها وتعطيها شكلاً ملموساً"، فهي تجسد الرؤية الإيديولوجية للروائي، كون الأخير يسعى إلى تغيير الواقع الاجتماعي بما يرى فيه من سلبيات وتداخلات، "فالأدب إنتاج إيديولوجي يتواجد في علاقة مع اللغة ومختلف أشكال استعمالها، فهو إنتاج لا يوجد إلا بالعلاقة مع الإيديولوجية ومع التاريخ، تاريخ التشكلات الاجتماعية، وتاريخ الإنتاج الأدبي وتطور أدواته وتقنياته الأساسية ومواد عمله".

نستنتج مما قيل أن لكل كاتب إيديولوجيا معينة يتبنى أفكارها ويستमित للدفاع عنها، ولحاولة نشرها بين عموم قرائه، بل وغالباً ما يعادي كل فكرة أو جماعة تعادي إيديولوجيته، كما هو حاصل والمعارك بين أنصار الحداثة والتغريب وخصومهم أنصار التراث، وكذا الصراع بين أصحاب الفكر الليبرالي وأنصار الفكر الإسلامي، إلى غيرها من المشاكلات بين الأحزاب والتيارات السياسية بمختلف مشاربها وأفكارها، إذن فالإيديولوجيا في الأدب عامة والرواية خصوصاً تتمثل "هوية" كل كاتب، فتصنيف الروائيين الهوياتي ينسب أساساً على الإيديولوجيا.

6 إشكالية الهوية في الرواية الجزائرية المعاصرة:

إن من مميزات الخطاب الروائي الجزائري إلحاحه على العودة إلى الذات والتمسك بها، وكذا التثبيت بالخصوصية الثقافية والاجتماعية ونلاحظ هذا في نقد هؤلاء الروائيين للذات التي تستلم للتبعية وترضخ لواقع استلاب هويتها أمام الغير، إنما حالة من التمزق بين حالتين أو مستويين من أنماط الهوية، فالذات أصبحت تتجاوز حالة من التصورات الذهنية الراسخة وما يقدمه الآخر من بني فكرية وثقافية مختلفة. ولذلك ظل سؤال الهوية هاجساً يورق الكتاب العرب عامة والجزائريين خاصة نظراً لاحتكاك الجزائريين بالآخر المختلف ثقافياً وفكرياً لأزيد من قرن وثلاثين سنة مما نتج عنه تصدعا في الهوية حتى كادت تمحى.

انبرى المشروع الروائي الجزائري إلى هذا الموضوع موضوع الهوية لأنه أدرك أهميته بالنسبة للشعب الجزائري، لأن شعبا بدون هوية شعب آيل للزوال، فكانت طريقة الروائيين الجزائريين في معالجة هذا الموضوع تمر عبر التغلغل في قضاياها وملاستها من الداخل، فعمد من خلالها إلى شد المتلقي إلى تلك الصورة المنتزعة من الواقع بمختلف طقوسه (الاجتماعية، الثقافية، الفكرية، العقائدية)، حيث تتيح له "مواجهة أسئلة تثيرها الحياة، حول الأنا وما يعترضها من أزمات في أثناء تشكل هويتها، خصوصا حينما تصطدم بالآخر، فتتضح أمامه إشكالية الأنا والآخر، وتتبدى له التشوهات التي تحاصر الآخر وبذلك تستطيع الرواية أن تتسلل إلى أعماق الإنسان، لتناقش ما يمكنه في لاوعيه" (جبور، 2013، صفحة 45) وعليه فإننا نحاول الاقتراب من حمى النصوص الروائية الجزائرية والنظر إلى كيفية معالجتهم للهوية خصوصا إذا ما تعلقت بثنائية الأنا والآخر، فإذا تأملنا في الرواية الجزائرية سواء المكتوبة باللغة الأجنبية (الفرنسية غالبا) أو المكتوبة باللغة العربية، نجدتها احتضنت سؤال الهوية بكثير من الإسهاب، بل مازال السؤال الرئيسي في الثقافة والإبداع، فعدا بمثابة بطاقة شخصية للعمل السردى وللكتاب، وجواز سفر للقارئ ليبحر في عوالم مهاجرة، يكتشف من خلالها ثقافة الأجنبي الذي دائما ما يتغنى بحضارته وتاريخه.

وبذلك لم تتوقف الرواية الجزائرية "عن طرح تلك الثنائيات التي سادت في مرحلة الأدب الكولونيالي، والتي أعيد طرحها من منظور معاصر وتوصيفها بالأنا والآخر، فجاء بطل الرواية يتخبط ضمن دائرة البحث عن هويته المفقودة، والتي تتنازعها عولمة الآخر،" فانساق الأديب إلى تعزيز مبدأ التعايش السلمي والولوج إلى الضفة الأخرى عن طريق الحوار البناء لأن المشاركة والحوار الحضاري إرادة حضارية قبل أن تكون فكرية أو أمنية أو رغبة" (حمود، 2013، صفحة 41)

سعى الأدباء الجزائريون إلى تأكيد هويتهم الإسلامية والعربية الجزائرية في جل أعمالهم، حتى تلك المكتوبة باللغة الفرنسية، إذ ناضل هؤلاء الكتاب خير نضال في محاربة الاستعمار بلغته التي اعتمدها سلاحا ضده، فهذه نجمة لكاتب ياسين والتي صنفت كأفضل عمل أدبي غير فرنسي، حيث يؤكد السعيد بوطاجين في افتتاحية ترجمته للرواية بالقول: «وليست نجمة عملا روائيا وكفى، ليست قصة تنتظر نهايتها، وليست أبطالا بالمفهوم المتواتر، إنها سلم حقيقي يقود إلى ما يشبه الهوة الممتدة من المطلع إلى الخاتمة»، فجددت هذه الرواية صورة التفكك والتشتت الذي يعيشه المجتمع الجزائري الذي يعيش على الهامش دون وطن ودون مصير معلوم. بالإضافة لرواية نجمة ثلاثية محمد ديب وكذا مولود فرعون في الدروب الوعرة ومالك حداد... وغيرهم الكثير ممن اعتدوا بالكلمة لفرض صوتهم، وكانت كتاباتهم مستوحاة من واقع الشعب الجزائري الطامح لإعادة هويته وكيان وطنه المستعمر.

1.6 تجليات الأنا والآخر في روايات ياسمين خضرا:

يرى حميد بوحبيب، أستاذ الأدب بجامعة الجزائر أن "هاجس الآخر سيقى يسكن الكتابة في الجزائر، ولا غرو في ذلك، فالأدب الجزائري الحديث ولد من رحم المأساة الكولونيالية، ولكن إذا كان جيل الرواد قد اختار خندق المقاومة، والمواجهة المكشوفة مع المتروبول، وكتب من منظور تحرري واع بمقولات الهيمنة الثقافية، وحاول بكل نبل أن يفكك الخطاب الاستعماري ويفضح مركزيته الإقصائية، فإن الجيل الحالي (ليس كله بطبيعة الحال) يبدو مهووسا أكثر بنيل الاعتراف من الآخر." (بن صالح، 2011، صفحة 222)

يعتبر الكاتب الجزائري ياسمين خضرا أكثر الروائيين الجزائريين الذين ناقشوا إشكالية الأنا والآخر في رواياتهم بكثير من الإسهاب، فنجد هذه الثنائية في "فضل الليل على النهار" و"سنونات كابل" و"الصدمة" تتجلى بوضوح وتشكل عنصرا قارا تبني عليه الرواية، وحتى رواياته التي ناقش فيها مواضيع خاصة بالشأن الداخلي تحضر فيها هذه الثنائية كرواية "خليل".

2.6 الأنا والآخر في رواية الصدمة:

في هذه الرواية انتقل الكاتب من معالجة قضية وطنه وعلاقته بالاستعمار إلى قضية أخرى مركزية وهامة يحملها كل مسلم وعربي في قلبه وعقله وهي القضية الفلسطينية، حيث يتطرق فيها ليوميات الجراح الفلسطيني "أمين جعفري" طبيب فلسطيني حامل للجنسية الإسرائيلية ذو أصول عربية، يعيش حياة هادئة مع زوجته "سهام" ليتفاجأ في يوم برسالة تركتها له الأخيرة: تخبره فيها عن نيتها بتنفيذ عملية استشهادية في أوساط المستوطنين اليهود تقول فيها: "ما نفع السعادة، إذا لم يتقاسمها المرء يا حبيبي أمين؟، كانت أفراحي تخمد كلما كانت أفراحي لا تجاريه، كنت تريد أطفالا، كنت أريد أن أستحقهم، ما من طفل بتماما بدون وطن... لا تنقم علي" (خضرا، رواية الصدمة، 2007) البطل الذي لم يفهم كيف تم تجنيد زوجته باسم الدين والمقاومة إلى درجة غطت على الحب الكبير الذي جمع بينهما، وأدت إلى كتمانها سر قيامها بالعملية الفدائية، وكيف أصبح موضع شبهة من طرف الإسرائيليين بعد سعيه لفهم فعل زوجته رغم مكانته المهنية المرموقة في تل أبيب. وعلى هذا يمكن القول إن الرواية نجحت في رسم الواقع الاجتماعي الفلسطيني وحاولت تصوير مأساته فرسمت العلاقة بين الأنا الفلسطيني ممثلا بأمين وزوجته والآخر الممثل بالمجتمع الإسرائيلي إيجابا أو سلبا رغم تغليبها فكرة التعايش السلمي وهو ما يرى استحالته كل طرف في هذا الصراع.

3.6 الأنا والآخر في رواية فضل الليل على النهار:

حاول ياسمينا خضرا في روايته هذه أن يبرز تمسك الغير بهويته الضيقة وكشف الاختلاف والتمايز، بالإضافة لتعمقه في الذات الجزائرية وإظهار خصوصيتها والحفاظ على هويتها في مقابل الآخر، على مدى مئات الصفحات استطاع المؤلف أن يجعل القارئ يشاركه هذه القصة المليئة بالأحداث المؤلمة. والرواية تحكي عن الانقلابات السياسية التي شهدتها الجزائر في كل مكان بعد الحرب العالمية الثانية وأدت إلى مواجهة عسكرية بين الجانب الفرنسي والجزائري. وفي الوقت نفسه تحكي الرواية أيضا المأساة المؤلمة بين يونس أو يوحنا وإيميلي التي بدأ ياسها يزداد ويقودها إلى الزواج من شخص آخر دون أن يخفي يونس من حياتها. إن الرواية تمتلئ في معظمها بالمشاهد المثيرة والحوارات الحية والشخوص التي لا تُنسى. وفوق ذلك فإن الرواية تحمل في طياتها جدية كبيرة وسوداوية، عكرت من صفوها للأسف اللغة المملوءة بالصياغة المبهرجة والمتكلفة. تدور الرواية المليئة بالأحداث التي تمتد من أواخر عشرينيات القرن الماضي حتى الوقت الحاضر حول عاطفة الحب التي يبدئها يونس تجاه الفتاة الفرنسية إيميلي، وهو شعور لم يستطع يونس أن يجهر به بسبب خجله وحيائه، ولم يستطع أيضا التغلب على هذا الحياء على الرغم من صراحة إيميلي في وكعها به وإقرارها بحبها الجنوني له. ومن الصعب على القارئ أن يتحمل انغلاق بطل الرواية، فمن حين لآخر يوحى يونس بالجمود وفقدان الشعور واستسلامه لآلامه حتى يكاد القارئ يخرج عن هدوئه. وعلى الرغم من أن المحبوبين حاولا مرارا على مدى سنوات التعبير عن حبهما إلا أن ذلك الحب المتبادل بقي دون نهاية سعيدة.

من المحتمل أن يكون ياسمينا خضرا يُومئ بتركيبة روايته المعقدة إلى العلاقة المتوترة بين فرنسا والجزائر، ويومئ أيضا إلى تدمير البلد والمعارك الدموية التي قادت إلى استقلال الجزائر عام 1962. رغم الصدى العالمي الذي حققته هذه الرواية خاصة في الأوساط الأوروبية إلا أنها صورت تعايشا سلميا للضحية مع الجلاذ وهي علاقة يستحيل على العقل تقبلها، كيف لا والكاتب يروج لفرضية الاندماج داخل مجتمع ليس مختلفاً فقط في تقاليده وشعائره الدينية مع معتقداتك، بل بُني على حساب حقوقك بإنشاء كيان مستقل، كما أن وجوده سبب لك المشكلات على الأصدقاء الثقافية والإنسانية والهوياتية،

7. الأنا (العراقي) والآخر (الأمريكي) في رواية أشباح الجحيم:

1.7 بطاقة قراءة للرواية الأنموذج:

صدرت رواية "أشباح الجحيم" للكاتب الجزائري "محمد مولسهول" المعروف باسم "ياسميننا خضرا" سنة 2006 عن دار جوليارد، عدد صفحاتها 365 صفحة في الرواية الأصل، تلقت الرواية ترجمات للغات عدة من بينها نسخة باللغة العربية التي صدرت عام 2007 عن دار الفارابي بترجمة محمد ساري ويبلغ عدد صفحات الرواية المترجمة 382 صفحة.

2.7 جمالية عنوان الرواية:

يمثل العنوان في جميع الأعمال الإبداعية بطاقة تعريف النص وهويته التي يستمد منها حضوره، لهذا يسعى المشتغلون في حقل الفن إلى تمييز مؤلفاتهم باختيار أكثر العناوين جاذبية وتأثيرا على المتلقي، لأنه أول ما يتلقاه القارئ، حيث أن "العنوان تمفصل حاسم في التفاعل النصي، باعتباره سما وترياقا في آن واحد، فالعنوان عندما يستميل القارئ إلى اقتناء النص وقراءته يكون ترياقا محفزا لقراءة النص، وحينما ينفر القارئ من تلقي النص يصير سما وترياقا" (بوعزة، 2004، صفحة 408). أي أنه من خلاله تتبلور فكرة ولوج النص وقراءته أو النفور منه، فهو الذي يستميل القارئ ليدب في مهاوي النص، ونحن في مقاربتنا لرواية أشباح الجحيم، اصطدمنا بجاذبية العنوان لكونه "نظاما سيميائيا ذا أبعاد دلالية وأخرى رمزية تغري الباحث بتتبع دلالاته ومحاولة تفكيك شفراته"، فالتأمل للعنوان في بادئ الأمر يعتقد أنه بصدد رواية تحكي عالما متخيلا وغريبا عن الواقع، ولكن بمجرد أن نقرأ الكلمات التي انتقاها الكاتب من متنه الروائي لتكون عتبة أمام القارئ، ندرك أننا بصدد فضاء سردي يحكي فترة مظلمة من تاريخ العراق، وهي فترة الاحتلال الأمريكي. "وحينها تألأت سماء بغداد بأسهم نيرات غريبة وارتفعت صفارات الإنذار في صمت الليل..." (خضرا، أشباح الجحيم، 2009، صفحة 30)

3.7 ملخص الرواية:

تحكي الرواية قصة شاب عراقي من قرية شبه معزولة عن العالم من أهل البادية تسمى "كفر كرم"، بعيدة عن كل صورة التمدن، نشأ الشاب بعيدا عن كل مظاهر العنف والعدوانية، لتأتي نقطة التحول في حياته باقتحام جنود القوات الأمريكية منزله وإلحاق كل أنواع الإذلال بعائلته (والده خاصة)، ليشاهد رصاص الأمريكيان وهو يخرق جسد والده.

يتحول الفتى بعدها تحولا جذريا ويبدأ رحلة البحث عن الانتقام والثأر لوالده وكل أهل قريته الذين لاقوا نفس مصير والده من قتل وإذلال، فيغادر بغداد متجها لبيروت يقول: "أدركت أن لا شيء يبقى مثل سابق عهده... وبأنني عاجلا أم آجلا ومهما حدث ومهما سيحدث، حكم علي أن أثار للعار الذي أصابني" (خضرا، أشباح الجحيم، 2009، صفحة 133)، ينتقل بعدها الراوي لتوصيف رحلة الشاب في المدينة الجديدة التي حل بها (بيروت) وما لقيه في شوارع هذه المدينة من معاناة بين سرقة وتشريد ومبيت في الشوارع والأزقة، حتى إيجاده لوظيفة بأجر زهيد وهناك تحصل نقطة تحول أخرى في حكايته حيث يكتشف أن رب عمله يمارس أعمالا مشبوهة ولكنها تصب في صالح وطنه فينخرط معه في هذا العمل، ليتم حقنه على مدار أيام حتى يحمل فيروسا، يستهدف بعدها الذهاب إلى لندن حتى ينشر هذا الفيروس وينقل المرض لهم، "تتمثل مهمتي في حمل الفيروس، هذا هو، حضروني جسديا لحمل فيروس، الفيروس، سلاح الفتاك، قبلي، جهازي الانتحاري..."

تمر الأيام وتحين رحلة الانتقام، موعد مغادرة بيروت والحقاق بلندن لتنفيذ مخططه الثأري، تساوره الشكوك حول ما ينوي القيام به فيدرك أنه مقبل على الموت في كلتا الحالتين لأن رفاقه سيقتلونه لو اكتشفوا تراجعهم وندمه على مخططهم، كثرت الأفكار في رأس الشاب فاختر أن يتزوي في أحد الزوايا ليكون اخر منظر يشاهده هو أضواء مدينة بيروت، فاعتلى صخرة يتأمل ويتذكر مراحل حياته في قريته الصغيرة ويحن لأشخاص عاش طفولته معهم وأخذ يقول في قرارة نفسه.. لقد انتهى الأمر ومضى أوان الندم، وماهي إلا لحظات حتى وصل رفاقه له وينطق باخر كلمة له في قرارة نفس... "البعجلوا بالنهاية" (خضرا، أشباح الجحيم، 2009، صفحة

4.7 الأنا والآخر في الرواية:

5.7 الأنا في الرواية:

أورد ياسمينا خضرا عدة شخصيات في روايته ومن جملة هذه الشخصيات التي تجسد الأنا نجد:

-البطل: هو شاب عراقي يدرس بجامعة بغداد متخصصا في الأدب العربي، والده يشتغل حفار آبار، يعيش في قرية "كفر كرم"، نقطة التحول في حياته كانت عندما حل المستعمر بقريته وعات فيها فسادا فشرذ وقتل أهل هذه القرية ومن ضمن الضحايا كان والده الذي أوداه الأمريكان أمام أعين أولاده، لينتقل إلى بيروت بعدها ويقرر الانتقام وتستمر حكايته حتى يقتل على أيدي رفاقه في النضال إذا اعتبروه خائنا لهم.

-فرح: أخت البطل صورها الكاتب بأنها فتاة (متحررة) تمكنت من مواصلة دراستها رغم نظرة سكان القرية لها، لم يكتف الكاتب بإعطاء هذه الصورة بل زاد بأنها مرغت شرف العائلة بمعاشرتها رجلا غريبا ويتجلى ذلك عندما ذهب إليها أخوها، "لا أستطيع إيواءك لأني أعيش مع شخص

-تعيشين مع رجل؟ تعيشين في الحرام؟

-ماذا يعني لك الحرام أيها الأخ الأصغر؟

-ليس لديك الحق وكفى

-هل فكرت في عائلتك؟ وفي شرفها؟ في عرضك أنت؟ أنت لا يمكنك العيش في الحرام، أنت بالذات

-لا أعيش في الحرام، أعيش حياتي وكفى.

-ألا تؤمنين بالله؟

-أؤمن بما أفعل، وهذا يكفي..."

-عمر: كان ضابطا في الجيش، شخصيو منفعة متسلطة يكرهه أفراد قريته، " كان عمر يكبرني بإحدى عشرة سنة، كان إزعاجا متنقلا في القرية، لا يجذب الشبان، فظاظة أقواله وأفعاله وتلميحاته المنحرفة، يتجنبه الجميع كما الطاعون" (خضرا، أشباح الجحيم، 2009، صفحة 54)

-كاظم: ابن عم الراوي، شخصية هادئة منطوية يملك طموحا في تطوير نفسه للعب على العود "كاظم هو من بين جميع أولاد الأعمام والأخوال أحسن أصدقائي، حينما أخرج من دارنا أجد دائما في زاوية الزقاق، منطويا، إنه أيا شخص عرفته، كاظم ضارب عود موهوب، يكسب قوته بالمشاركة في حفلات الزواج، كان ينوي تشكيل فرقة موسيقية، لولا وفاة زوجته جراء التهاب الرئة، تألم كاظم كثيرا، ثم أجبره أبوه على الزواج ثانية أملا في التخفيف من حزنه، لكن ثمانية عشر شهرا بعد الزواج، أكله مرض التهاب السحايا، بعد ذلك فقد كاظم إيمانه في الحياة" (خضرا، أشباح الجحيم، 2009، صفحة 36)

بما أن الشخصيات في الرواية هي لب وأساس العمل السردي إذ لا تستقيم أي رواية إلا بشخصيات تقود الأحداث وتعطي

للرواية بعدها الحكائي، نلاحظ من خلال شخصيات الرواية نظرة ياسمينا خضرا للأنا فهو في "أشباح الجحيم"

يصور البطل بشخصية متذبذبة مزاجية فبين مناقشة الأسباب التي جعلت هذا الشاب يغير نمط حياته بعد تلك الحادثة ويسعى للتأثر ممن قتل وشرذ عائلته نجد أن هذه الصورة مشاهمة لصور أبطال روايات ياسمينا خضرا في رواياته من هذا النوع أي أن صورة البطل نمطية ومتكررة في روايات ياسمينا خضرا تماما كالتالي يصورها الإعلام الغربي، ولكن يحسب للكاتب إعطاء الفرصة للبطل وتركه يعبر عن وجهة نظره وأراءه وإيديولوجيته.

الشخصية الثانية المثلة للأنا والمثيرة للجدل هي شخصية "فرح" أخت البطل، تلك الفتاة المتحررة التي تحدث العرف ونظرة الناس وأكملت دراستها، (ونحن لا ندري من أين أتى الكاتب بفكرة أن الشعب العراقي كان يعارض فكرة التعليم بالنسبة للفتيات في بلد انعدمت فيه نسبة الأمية في مرحلة من المراحل قبل دخول الأمريكان وتخريب البلد)، يستمر الروائي بإثارة الجدل عبر شخصية فرح فيها هو يصورها بأنها فتاة ارتضت أن تساكن رجلا أجنبيا عليها ومرغت شرف العائلة، لم تكن "فرح" بهذا بل ناقشت أحاسنها وتحدياته وهي مقتنعة تمام الاقتناع بصواب معيشتها وحريتها في ما اختارته بقولها "ليس لديك الحق وكفى"، "لا أعيش في الحرام، أعيش حياتي وكفى"، هاته الصورة النمطية التي يسعى الغرب بأجنداته وإعلامه ترسيخها في المجتمع العربي المسلم المحافظ ربما تعتمد الكاتب وضعها في روايته إرضاء للآخر (الغرب)، خاصة أن نسبة كبيرة من جمهوره هم من الفرنسيين

كما لا يغفل باسمينا خضرا في هذه الرواية على توصيف عنصرية الاخر تجاه الأنا، تلك النظرة التي تمتلئ حقا وكرهية وشعورا بالفوقية، لا لشيء سوى لأننا عرب، " شيء جميل لو يلتحق مفكروننا بنضالنا ... أبدا لن يعترف الغرب بأفضالنا، بالنسبة إليه العرب لا يحسنون إلا الضرب في الكرة أو الصراخ في مكبر صوت، وكلما أثبتنا له العكس، إلا وارتفع إنكاره لنا، وإذا حدث مرة بالصدفة أن أجبرت هذه المدارس الآرية أن تقوم بحركة باتجاه هؤلاء العرب المدجنين ستختار أسوأهم لإثارة غيرة أحسنهم" ص 19، تتجلى في هذه المقطوعة السردية نضال الأنا مثلا بالثقافة العربي في سبيل الحفاظ على شيء مقدس ألا وهو الهوية، هاته القدسية التي يعمل "الآخر" المتعصب والكاره على طمسها وتشتيتها يقابله فيها "الأنا" بسلاح التمسك والنضال بهويته والاعتزاز بها، ورغم هذا تفيض نبرة كلام "الأنا" بمشاعر اليأس والقنوط والغربة والضياع.

6.7 الأنا والارتباط بالأرض:

رغم أن رواية "أشباح الجحيم" تصور أزمة حالكة في تاريخ الشعب العراقي سادتها سوداوية القتل والدمار والتشريد إلا أنها تجسد مظهرا من مظاهر الهوية ألا وهي "الارتباط بالأرض" والوطن فمشاهد الوصف لموطن النشأة تفيض بالحنين والحب إلى هذه الأرض التي قض مضجعها الاستعمار الأمريكي، فيقول: "إني بدوي ولدت بكفر كرم، وهي قرية نائية في وسط صحراء العراق، إنها كتومة إلى حد أنها غالبا ما تدوب في السراب" (خضرا، أشباح الجحيم، 2009، صفحة 8)، أو في قوله " بيني وبين بغداد انقضى زمن البراءة المزهرة، لم يعد لنا شيء نقوله لبعضنا البعض، نتشابه مثل قطري ماء، فقدنا روحينا ونستعد لقطف أرواح الغير" (خضرا، أشباح الجحيم، 2009، صفحة 172)، إنها الهوية التي تعدل عند "الأنا" قيمة الروح فقدان جزء من هاته الهوية (الأرض) يمثل لقي الموت "فقدنا روحينا ونستعد لقطف أرواح الغير" فما عادت هاته الأرض التي طالما تفتيانا ظلالتها أكلنا من خيراتها تتسع لنا، لقد أتى من يسلبنا حقنا المشروع للعيش في هذه الأرض "الكتومة".

تستمر مشاهد توصيف الأرض والحسرة على ضياعها ووقوعها بين نارين، نار المجازر التي ترتكبها القوات الأمريكية بالقصف والإبادات الجماعية من جهة، ونار التفجيرات والاعتقالات التي يتبناها الأصوليون الإسلاميون باسم الدين من جهة أخرى، حيث شبه هذه الأرض بالمرأة الحامل المتعسرة ولادتها فيقول: "تتعفن بغداد لزمن طويل تشكلت داخل عجينة الاستبداد، ها هي اليوم تتخلى عن حبال معذبيها لتسلم نفسها لتيارات الانجراف، منبهرة بغضبها الانتحاري ودوخة اللاعقاب إهمار الطاغوت فوجدت صمتها الخير سالما، وجبنها ناقما وألمها عظيما، فراحت تعوذ من شر عفاريتها بقوة الولادة العسيرة لم تتمكن يوما من تليين قلوب جلاديها...." (خضرا، أشباح الجحيم، 2009، صفحة 188)

إن رواية "أشباح الجحيم" مسردية تدرج ضمن الكتابة الروائية لياسمين خضرا حول علاقة الأنا والآخر (المستعمر)، ويبدو أن هذا النص يستحضر فيه رواية تصب في نفس الموضوع وهي "سنونات كابل" ذلك أن موضوع المستعمر والآخر الأجنبي الدخيل هو محور أحداث هاته المسردية، وبما أن إيديولوجية الكاتب ثابتة فإننا نرصد نفس الموقف ونفس الأحكام التي يصدرها فكان

الصراع بين الخير والشر وتقاطع وتشابك الشخصيات والأمكنة في الرواية وكذا أسلوب ياسمينا خضرا المشوق جعل هاته الرواية تخرج بصورة فنية متميزة رغم تشابه موضوعها مع باقي موضوعات رواياته.

خاتمة:

يحسب لياسمينا خضرا في هذه الرواية اهتمامه بقضية الشعب العراقي المظلوم والتي تشبه تماما معاناة الشعب الجزائري مع الاستعمار الفرنسي إلا أنه يعاب عليه ككثير من الكتاب الفرنكوفونيين طغيان الرسائل السياسية والإيديولوجية التي تمرر عبر رواياتهم، إذ أن الناقد يدرك تماما أن الروايات على هاته الشاكلة بعيدة عن الاعتبارات الفنية والجمالية أو لنقل (متعمد إبعادها)، بل ذهب الكثير من هؤلاء الكتاب إلى تمجيد الاستعمار والإعلاء من شأنه ووضع اللوم كل اللوم على الأنا (الضحية) وتصوير إمكانية التعايش السلمية متجاهلين التاريخ الاستعماري والجرائم التي ارتكبتها الآخر، ويمكن تفسير هذا بعدة أسباب نذكر منها:

-الاصطدام بأول صورة من صور هيمنة الآخر على الأنا وهي الهيمنة اللغوية وما ينجر عنها من تأثير بثقافة الآخر بل والانبهار بحضارته رغم أن الأخيرة قامت على جماجم الشعوب المستضعفة وكان الأنا العراقي والجزائري من هاته الشعوب

-ارتباط الكتاب الجزائريين الفرنكوفونيين بدور النشر في باريس والتزامهم بما تمليه عليهم من رؤى وتوجهات إيديولوجية معادية للجزائريين (دينا ولغة وثقافة) ويسيطر على هذه الدور لوبيات فرنسية متعصبة وعنصرية، ولا أدل على ذلك مما حصل مع الكاتب الجزائري محمد ديب عندما قرر التوجه للكتابة الفلسفية المخاطبة للإنسان، فامتنعت دار "لوسوي" الشهيرة على التعامل معه بحجة تراجع رواج رواياته مما لا يترك أي مجال للشك، أن الدور الفرنسية لا تنظر إلى الروائي الجزائري إلا ككاتب "سياسي" يحمل خطابا مُناهضا للسلطة وقيم الأنا بما يخدم مصالحها، وليس ككاتب مبدع قادر على إنشاء عوالم أدبية ممتعة.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- مولود فرعون، (1990)، الدروب الوعرة، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.
- 2- مولود فرعون، (2012)، ابن الفقير، بجاية الجزائر، دار ثلاثنفت للنشر.
- 3- ياسمينه خضراء، (2009)، أشباح الجحيم، الجزائر، دار سيديا.
- 4- مجموعة مؤلفين، (2007)، الجزائر في كتابات الأدباء الفرنسيين في القرن التاسع عشر، الجزائر، الجزائر، دار التنوير.
- 5- ماجد حمود، (2013)، إشكالية الأنا والآخر، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- 6- محمود قاسم، (1996)، الأدب العربي المكتوب باللغة الفرنسية، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- 7- كوزان بيتر، (2010)، البحث عن الهوية وتشتتها في حياة إيريك إيريكسون وأعماله، العين، الإمارات العربية المتحدة، دار الكتاب الجامعي.
- 8- سامية إدريس، (2011)، الرواية الجزائرية الحديثة بين الهوية الثقافية والهوية السردية أعمال اليوم الدراسي (الرواية بين ضفتي المتوسط)، الجزائر، المجلس الأعلى للغة العربية.
- 9- بن جمعة بوشوشة، (1998)، الرواية الجزائرية العربية (أسئلة الكتابة والصور)، الإسكندرية، مصر، مكتبة بستان المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع.
- 10- أم الخير جبور، (2013)، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، الجزائر، دار ميم.
- 11- نوال بن صالح، (2011)، الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وثورة التحرير، صراع اللغة والهوية، مجلة المخبر، 7220.
- 12- عبد الله الركبي، (2009)، الفرنكفونية مشرقا ومغربا، القبة، الجزائر، دار الكتاب العربي.
- 13- عبد العزيز شرف، (1999)، المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، بيروت، لبنان، دار الجليل.
- 14- حميد حميداني، (1990)، النقد الروائي والإيديولوجيا (من سوسولوجيا النص إلى النص الروائي)، بيروت، لبنان، المركز الثقافي العربي.
- 15- اليكس ميكشيللي، (1993)، الهوية، سوريا، دار الرسم للخدمات الطباعية.
- 16- عايدة أديب، (1982)، تطور الأدب القصصي 1967/1925، الجزائر، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.
- 17- سعدي بزيان، (2005)، جرائم فرنسا في الجزائر (من الجنرال بيجو إلى الجنرال أوساريس)، الجزائر، الجزائر.
- 18- كمال بوشامة، (2010)، رسالة إلى روني أو البحث عن الحقيقة في بعض الفترات الإستعمارية، الجزائر، الجزائر.
- 19- محمد داوود، (2005)، رشيد بوجدره وإنتاجية النص، وهران، المركز الوطني للبحث في الأنتروبولوجيا الإجتماعية والثقافية.
- 20- ياسمينه خضراء، (2007)، رواية الصدمة، بيروت، دار الفارابي.
- 21- كاتب ياسين، (1987)، رواية نجمة، الجزائر، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.
- 22- لوسيان غولدمان، مقدمات في سوسولوجيا الرواية، دمشق، سوريا، دار الحوار للنشر.
- 23- محمد بوعزة، (2004)، من النص إلى العنوان، مجلة علامات في النقد، العدد 53، 408.
- 24- صموئيل ب هنتغتون، (2005)، من نحن؟ التحديات التي تواجه الهوية الأمريكية، دمشق، سوريا، دار الرأي للنشر.

25- عبد المالك مرتاض، (1983)، نهضة الأدب المعاصر في الجزائر 1925-1954، الجزائر، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.